سورة الأنفال

[توجيهات حربية للمؤمنين]

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ۞ [الأنفال: ١٥-٢٦]. [٣٤]

[شرح٣٤] يُبيِّن ربُّنا عز وجل في هذه الآيات أحكاماً كثيرة، وشؤوناً عظيمةً، إذا أخذَ بها أهلُ الإيمان استقام لهم أمرُهم، وصلُحت لهم دُنياهم وأُخراهم، كما يبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات ما يجب على أهل الإيمان عند لقاء الكفّار، وأن الواجب عليهم التصميمُ والصِّدق في لقاء الأعداء وجهادهم، والحذرُ من الانحراف والتولِّي عن أعداء الله؛ ولهذا يقول جل وعلا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا =

.....

= ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذا يُبين أن الواجب المُضيُّ قُدماً عند لقاء الأعداء، وعدم التولي، وأن يكون المؤمن في غاية من النشاط والقوة في مساعدة أولياء الله، وإعانتِهم على قتال أعداء الله، ولا يحمله الجُبن وخوفُ الموت على التأخُّر والتولي عن أعداء الله، بل يُقدم ويَصبر ويُصابر، والله سبحانه وتعالى مع المؤمنين بنصره وتأييده، فهو سبحانه فوق العرش ولكنه مع أوليائه بالنصر والتأييد والتوفيق والترشيد.

والمَعيَّة مَعيَّتان، معية خاصة: وهي مَعيَّةُ الله مع أوليائه، ومع الصابرين، ومع المحسنين، ومع المتقين، قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال أيضاً: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: =

.....

= ١٩]، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فمن صبر على جهاد أعداء الله، وصبر على أداء حق الله، فالله معه سبحانه وتعالى بالتأييد والنصر والتوفيق، وشرح الصدر، وإنزال الرُّعب في قلوب الأعداء، فالله ينصر أولياءه بأنواع من النصر، ومن التثبيت على القتال، وشرح الصدور، وتقوية الإيمان، والإمداد بالملائكة، وما يُوقعه سبحانه في قلوب الأعداء من الرعب والضعف وعدم الثبات، فهو ناصرٌ أولياءَه ومعينُهم سبحانه وتعالى، ومعية عامة وهي لجميع خلقه، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

ويبين جل وعلا أن المتحيز إلى فئة أو المتحرِّف لقتال، ليس ممن يولِّي الأدبار، فإذا تحرَّف أحد المجاهدين من مكان إلى مكان ومن صفٍّ إلى صفٍّ ليتهيأ للقتال وليساعد إخوانه على أكمل ما يكون، فليس هذا بإدبار، كذلك من انتقل من جهة إلى جهة، ومن صف إلى فئة لأجل المقاتلين، لأمر دعا إلى ذلك، لا فراراً من القتال، وولي الأمر ينظر في تدبيره وتوجيهه إلى الجهة التي يراها، =

.....

= فولي الأمر فئة ومرجع، كما قال النبي ﷺ للناس: «أنا فئتكم»[1].

وبيَّن سبحانه وتعالى أيضاً أن المؤمنين لم يقاتلوا الناس بقوتهم ولا بجهدهم فقط، بل الله معهم سبحانه وتعالى، فهو الذي سدَّد قتالهم، وصوَّبه حتى أصابوا العدوَّ فانهزم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فالأمر بيده جل وعلا، فهو مسدد العباد وموفقُهم، وليس الإنسان بمجرَّد كونه أعمَلَ السلاحَ، أو كونه قابَلَ الأعداء، أو أطلق الرمية ـ يجب أن ينجح، فقد يقاتل الأعداء ولا ينجح، وقد يطلق الرمي ولا ينجح، وقد يضرب بالسيف ولا ينجح، فالأمر في حد ذاته يرجع إلى الله عز وجل في تسديد إصابة الرمية وتوفيق الرامي للنجاح في قتاله ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فهو الموفِّق للمقاتلين وللمجاهدين حتى يَنشَطوا وحتى يقووا، وحتى تصيب ضرباتُهم ورمياتُهم لأعداء الله عز وجل، وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن لا تصيب طاشت، وسَلِمَ المقاتل، كما هو واقع في مواقعَ =

(١) أخرجه الترمذي: الجهاد عن رسول الله (١٧١٦).

.....

= كثيرةٍ وحوادثَ كثيرةٍ.

ويُبيِّن جلَّ وعلا أنه مع المؤمنين بنصره وتأييده حتى لا يَجبُنوا وحتى لا يَضعُفوا، وأنه سبحانه وتعالى يُقدِّر ما يقدِّر من الابتلاء والامتحان ليُبلِيَ المؤمنين بلاء حسناً، ولينظر جُهودَ الصابرين، وصِدقَ الصادقين، وصبر الصابرين، وذِكرَ الذاكرين، وغير ذلك، ويَبتلي هؤلاء بهؤلاء وهؤلاء بهؤلاء، حتى يتبيَّن مِن هؤلاء المؤمنين صِدقُهم ونجاحُهم وثباتُهم وقوَّتُهم وصبرُهم وإقدامُهم، وحتى يتبيَّن مِن الكذّابين والمنافقين إحجامُهم وجُبنُهم وخَوَرُهم وضعفُهم وتأخُّرُهم، فهو ابتلاء وامتحان ليرفع أقواماً ويضع آخرين سبحانه وتعالى، ليرفع أهلَ الصبر والإيمان والمواظبة والإقدام، ويضع أهلَ الجبن والخَوَر والضعف والتأخر والانحراف.

وكذلك يُبيِّن سبحانه وتعالى ما يجب على المؤمنين من طاعة الله ورسوله، وما الواجب من طاعة الله ورسوله، وأنه سبحانه وتعالى إذا شاء وفَّق قوماً فأسمعهم الحق وثبتهم عليه، وإذا شاء =

.....

= خذل آخرين من أعمالهم القبيحة وصفاتهم الذَّميمة.

ويبيِّن سبحانه أن شر الدواب عند الله هم الصُّم البُكم، من البشر والجن الذين لا يبالون بالحق ولا يستمعون له ولا ينطقون به، بل هم في غاية من الصمم والبكم عن الحق، فلا أُذُنٌ تسمع وتصغي، ولا لسان ينطق بالحق ويدعو إليه، بل هم في شر عظيم، وهم من أخبث الدواب، والإنسان دابة تمشي على قدميها، لكن الله يكرمه بالحق والهدى إذا استقام، فيكون من خير الناس ومن أفضل الناس، ويُهينه ويذلُّه إذا مال عن الحق والصواب، فيكون من شر الدواب، نعوذ بالله.

ثم يُبيِّن جل وعلا أن الاستجابة لله وللرسول فيها الحياة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فالحياة في طاعة الله ورسوله، والاستجابةِ لله ولرسوله، ومن أعرض عن ذلك فهو في غفلة، وإن لم يشعر بذلك، فلموت قلبه وانحرافه، قال جل وعلا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، =

.....

= فالحياة الطيبة في طاعة الله ورسوله، والشقاءُ والهلاك والموت في الإعراض عن الله ورسوله، وعدمِ طاعة الله ورسوله. ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالله جعل الوحي روحاً، يعني: أن الوحي الذي جاء به النبي محمد ﷺ روحٌ تحصل به الحياة، ونور تحصل به البصيرة، فمن فاته هذا الوحي ولم يوفَّق للانتفاع به وللاستفادة منه، فهو لا يزال في ظلمته، وفي موته، فالحياة والنور والسعادة والبصيرة في قَبول هذا الوحي والانتفاع به والاستفادة منه والسير عليه. وأما إذا أعرض عن ذلك فإنه تفوته الحياة الطيبة ويفوته النور، كما قال عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فمن قَبِلَ الوحيَ واهتدى بهدى الله فقد حصلت له الحياة، ومن تعلم وتبصَّر في الدين حصل له النور، فإذا أعرض عن ذلك فلم يقبل الحق ولم يتبصر فيه ولم يتفقَّه فيه، فقد فاتته الحياة وفاته النور، نعوذ بالله من ذلك، ونسأل الله السلامة.